Linguistic awareness among the Arabs in Kitāb Sībawayh ('Book of Sibawayh')

Asst. Prof. Dr : Abdul Karim Khaled Enaya
University of Basrah /College of Law
E-mail: abdulkareem.khlid@uobasrah.edu.iq

Abstract:

The research aims to show that the Arabs did not issue their language on the basis of innate inheritance and unconscious reception, but rather it resulted from a mind that is aware of what the tongue speaks at all levels of language, as well as the eloquence of speech and eloquence of the tongue. As the language of communication or the language of communication for them closely approached the language of public speaking, because the language of public speaking contains syntactic control, brevity, creativity and intentionality, and this was what the research aimed at through Sibawayh's blog in which we found some texts that clearly indicate that the Arabs spoke their language with a perceptive mind. Conscious, not based on simple human instinct and language.

Key words: mind, perception, deity, instinct, language, receiving, intentional, arbitrary.

الوعي اللغوي عند العرب في كتاب سيبويه

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الكريم خالد عناية
جامعة البصرة / كلية القانون
E-mail: abdulkareem.khlid@uobasrah.edu.iq

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان أن العرب لم تكن تصدر عنهم لغتهم على أساس التوارث الفطري والتلقي اللاواعي ، بل كانت تنتج عن عقل مدرك لما ينطق اللسان بمستويات اللغة كافة ، فضلا عن بلاغة القول وفصاحة اللسان . إذ إن لغة التواصل أو لغة التخاطب عندهم قاربت بشكل كبير لغة الخطابة، لما تحويه لغة الخطابة من ضبط إعرابي وإيجاز وإبداع وقصدية، وهذا ما كان يهدف له البحث من خلال مدونة سيبويه في استكناه بعض النصوص التي تدل بشكل واضح على أن العرب نطقت لغتها بعقل مدرك وواع، لا على أساس الفطرة البشرية البسيطة والسليقة اللغوية.

الكلمات المفتاحية: العقل ، الإدراك ، الوعي ، الفطرة ، السليقة اللغوية ، التلقي ، القصدية ، الاعتباطية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وأهل بيته الطيبين وأصحابه المنتجبين ، وبعد ...

يمكننا أن نعد كتاب سيبويه وثيقة تاريخية مهمة تبرز الجوانب الفكرية والعقلية ، والثقافية ليس لعصر سيبويه أو عصر أساتذته ، أو سابقيهم بل للعرب الذين أخذت عنهم ما يقرب إلى ثلاثمئة سنة .فالكتاب مدونة سيبويه التي سجل فيها مشاهداته ومشاهدات شيوخه للسلوك اللغوي عند العرب ، وإذا ما قُرئت تلك الاستقراءات بشكل صحيح ،وخضعت للفحص والاختبار، فلن تعد تلك المشاهدات مجرد وصف نظري للفعل الكلامي العربي في زمن الاستقراء النحوي ، بل هي وثائق علمية تعكس مستوى الوعي الذي يشكل الأساس الفكري لانتظام العربية وانضباط قواعدها وانسجام مفرداتها ، وتراكيبها. وتماسكها الدلالي ما منحها قدرة لغوية تعبيرية جعلتها بدرجة تؤهلها لحمل رسالة السماء الخالدة إلى البشر جميعا.

ما نسبه سيبويه إلى العرب أفرادا وجماعات من سلوك لغوي ، وأفعال كلامية يدل على أن اللغة لم تكن تصدر عنهم على أساس التوارث الفطري ، والتلقي اللاواعي ، فالعرب لم تتكلم متصرفة بلغتها تصرفا اعتباطيا بل هناك بحسب تحليل منسوبات سيبويه عقل مدرك لطبيعة اللغة وطاقتها التعبيرية وتمايز أساليبها الكلامية، يقول ما يقول بقصد ، ويختار ألفاظه وتراكيبه بإرادته التي تدل على تعقله نظام لغته ، وإدراكه لانضباطها .

هذا هو موضوع بحثنا الوعي اللغوي عند العرب في كتاب سيبويه ، نحاول من خلاله بيان معالمه ، ومظاهره التي تبين لنا أن عظمة العربية يقف خلفها وعي وإدراك واضحان ينأيان بها عن مقولة الاعتباط ، والقول على الفطرة .

والبحث يتضمن تمهيدا ،نبين فيها المنطلق النظري ،والحديث عن الفعل الكلامي ، ومفهومه وأسسه المعرفية للبحث و ثلاثة مباحث مخصصة لبيان ما نسبه سيبويه للعرب من أمور بمجملها تدل على موضوع البحث وتؤكده .

التمهيد:

ترتبط فكرة البحث بموضوع السليقة العربية ، وأن العرب كانت تتكلم على السليقة ،ولذلك اقتضى أن نعرضها باختصار لبيان المراد منها ،وتحديد علاقتها بالبحث.

فسرت المعجمات اللغوية السليقة بالطبع، أو الطبيعة . قال الأزهري: " فلان يقرأ بالسليقة أي بطبيعته ليس بتعليم، فإذا قرأ البدوي بطبعه ولغته ولم يتبع سنة القراءة قيل هو يقرأ بالسليقة " [١]، ثم يذكر تفسيرها المنسوب لليث " وقال الليث: السليقي من الكلام ما لا يتعاهد إعرابه، وهو في ذلك فصيح بليغ في السمع عثور في النحو. وقال غيره: السليقي من الكلام: ما تكلم به البدوي بطبعه ولغته، وإن كان غيره من الكلام آثر وأحسن" [٢]. ويضيف أبن منظور بعد أن ينقل من كلام الأزهري قائلا: " وفي حديث أبي الأسود: أنه وضع النحو حين اضطراب كلام العرب، وغلبت السليقة أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم على سليقته أي سجيته وطبيعته من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن" [٣] .

" فالعربي في القديم يتكلم لغته العربية بالسليقة من غير تلقين ولا تعليم ،يؤديها بصورة آلية دون تكلف ولا إجهاد والسبيل إلى ذلك المران والتعود والتكرار فهو مجبول على استخدام لغته وفق المقامات المختلفة ووفق خصائصها" [٤] .

و" لا تعني السليقة ومعناها الطبيعة والجبيلة مجرد الإعراب ومراعاة قواعده عند الكلام فحسب بل تعني أيضا التصرف في وجوه الكلام بالاشتقاق والتعريب والقياس على ما وضعته العرب وتكلمت به من صيغ وأساليب حتى ما تعلق منها بالبلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال " [٥] .

وهناك توجه لدى الدارسين المحدثين إذ يرون أن السليقة تعني اللاشعور ،فإبراهيم أنيس يرى أن المتكلم لا يشعر بخصائص لغته وإنما يرسل القول على سجيته وبحسب ما تعود في صغره[٦] ، يقول أحد الباحثين : "إن السليقة هي عملية تواصلية من غير شعور أو إدراك لقواعد اللغة المستعملة " [٧]...ويرى باحث آخر أنها ."تمثل مرحلة من مراحل إتقان اللغة حسب المتعارف عليه دون التصرف فيها والشعور بخصائصها وقواعدها " [٨] ، وقال آخر عن السليقة أن المتكلم " لا يكاد يشعر بخصائص كلامه من حيث الأصوات وأبنية الالفاظ وتراكيب الجمل فهو يؤدي الكلام بصورة آلية دون أن يكون له اختيار في هذه النواحي "[٩] .

وهذا يعني أن أداء العربية عملية آلية ، لا يرافقها وعي المتكلم بحقيقة لغته ، وخصائصها ، وأسرارها التعبيرية . وهو ما لا يمكن تقبله بشكل من الأشكال ، وإذا أردنا قبول هذا الادعاء فيكون محصورا بلغة التواصل اليومي التي لا تتسم بالبعد البلاغي، أو الفني ، ولم يكن غرضها إلا تحقيق التواصل الاعتيادي بين أفراد المجتمع . أما إذا دخل السلوك اللغوي دائرة البلاغة ،وحاول أن يمتلك درجة من درجات جماليات التعبير، ومقداراً معيناً من روائع القول ، وإبداعاته فعندئذ يتوجب علينا أن نبحث عن الفكر الذي يقف خلفه،

والوعي الذي أخرجه هذا المخرج ، والعقل المدرك الذي صاغه بصياغة خاصة تبهر من يسمعه ، وتعجب من ينصت إليه .

فروعة اللغة العربية ، وخصوصيتها التعبيرية ، بما لها من قواعد ،ومعايير تضبط أنساقها ، وتنظم مفرداتها بشكلها الذي أظهرته الدراسات اللغوية والادبية والنقدية وكذلك الدراسات القرآنية التي بينت لطائف العربية ، وأسرارها اللغوية التي وظفها القرآن لطرح معانيها ، وأفكارها . كل ذلك يشعرنا بوجود مقدار من الوعي اللغوي الذي عمل على نظم هذه القواعد ،وتنسيقها ،وصناعة أساليبها ،وشق طرائق تعبيرها ، وافتتاح مسالك القول ، و أفانين الكلام حتى لم يبق أمام النحويين سوى إطلاق المسميات ،وصناعة المصطلحات .

فالعربي الذي قدم الجار والمجرور على الاسم المبتدأ، (في الدار رجل) ؛ مستشعرا أن الفائدة تتحقق بذلك النمط الكلامي .والذي حذف الضمير من الأب عند إضافته إلى كريمة في قول : هند كريمة الأب، وأعاده إليه حينما قال (هند كريم أبوها) .وما شابهها من الامثلة التي تبين جمال العربية وابداعها التعبيري،لا ريب في أنه كان يعي ذلك بعقله ويدرك الفرق وهذا ما يذكرنا بقول الخليل إذ قال : " إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواضع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل عنها، اعتللت أنا بما عندي، إنه علة لما عللته منه "[١٠] .فالعرب كانت تدرك مواضع الكلام ،وأساليب القول مثلما يذكر الخليل الذي أحس بذلك وبنى عليه هو وتلميذه النجيب سيبويه النظام النحوي للعربية .

وهذا يعني أن سيبويه وشيخه كانا يدركان أن العرب تمتلك معرفة لغوية خاصة وإن لم ينقل عنها وهو ما يمكن أن يفهم من قوله : " كل شيء جاء قد لزم الألف واللام فهو بهذه المنزلة. فإن كان عربيا نعرفه ولا نعرف الذي اشتُق منه فإنما ذاك لأنا جهلنا ما علم غيرُنا، أو يكون الآخِر لم يصل إليه علم وصل إلى الأول المسمى"[١١] .

وما اعتقده الخليل وسيبويه يعد من المباني الأساسية في نحوهما ،ومن أسسه المعرفية التي استندا إليها في تأسيس القواعد ،واستنباط أحكام النحو ،واستخراج علله. بل إن أبن جني جعله من بديهيات الفكر النحوي ، وراح يدافع عن هذه الاطروحة بكل ما أوتي من قدرة عقلية ليثبت أن تصور سيبويه عن إدراك العرب لخفايا لغتها ،وتصرفها بها على النحو المبسوط فكرة علمية صحيحة . ولذلك جعلنا المبحث الأول خاصة بتصور أبن جني عن وعي العرب وإدراك سيبويه لذلك ليكون بمثابة مقدمة علمية تمهد لعرض المظاهر النحوية التي بناها سيبويه على التصور المشار إليه . ولعل ما ذكره د.علي جواد في مفصله يتفق مع ما نسبه سيبويه للعرب، قال د. جواد علي : " وإنما هو غنى نتج من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم. فلما كانت القبائل تتصل بعضها ببعض وتكوِّن مجموعات وكتل وأحلاف سياسية، للدفاع عن نفسها وللغزو، ولما كان الشعراء وسادات القبائل وغيرهم، يزورون غيرهم ويتنقلون من مكان إلى مكان، وقد يقيمون إقامة طويلة في مكان ما، يجاورون ويوالون، اشتبكت ألسنتهم، فأخذت وأعطت، وزاد هذا الاشتباك

حدة، تنافس المناذرة والغساسنة على الزعامة، وتدخل الروم والفرس والحبش في شؤون جزيرة العرب، ومجيء المبشرين النصارى إلى القبائل للتبشير بينها، واختلاط اليهود بالعرب، وهم أصحاب دين، واختلاط التجار الأعاجم بالعرب في السواحل وفي البواطن، وسفر أهل القرى وسادات القبائل إلى الشام والعراق للتجارة وللزيارة وللترويح عن النفس، وأمثال ذلك، فكان أن أوجد كل هذا المذكور وغيره وعيًا وحسًّا وشعورًا بوجوب التكتل والتجمع وبأنهم من أمة واحدة، وبأن في حياتهم التي يحيونها من جميع نواحيها ما يحتاج إلى إصلاح وتغيير ونظر. وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت، وفي آراء الأحناف وأصحاب الرأي، وفي أقوال الحكماء ولا سيما المتألهون والمتعقلون منهم، وفي الشعر الجاهلي، ولا سيما في شعر أولئك الشعراء الذين زاروا الحضر واتصلوا بأهل الحضارة، وجالسوا أهل الديانات واطلعوا على مقالاتهم وآرائهم وكتبهم، فنجد فيه أثر الأخذ والتأثر، حتى في استعمال الألفاظ، إذ سمحوا لأنفسهم باستعمال الألفاظ الأعجمية، كما في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت، الذي أدخل ألفاظًا في شعره غير مألوفة عند العرب."[١٢]

المبحث الأول: وعي العرب عند أبن جني :.

قال أبن جني واصفا وعي العرب بلغتهم ، وإدراكهم لأسرارها ، ومعرفتهم بخفاياها ونظامها، وأساليب فنونها في باب أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها إعلم أن هذا موضع في تثبيته وتمكينه منفعة ظاهرة وللنفس به مسكة وعصمة؛ لأن فيه تصحيح ما ندعيه على العرب: من أنها أرادت كذا لكذا وفعلت كذا لكذا. وهو أحزم لها وأجمل بها وأدل على الحكمة المنسوبة إليها، من أن تكون تكلفت ما تكلفته: من استمرارها على وتيرة واحدة وتقريها منهجًا واحدًا، تراعيه وتلاحظه وتتحمل لذلك مشاقه وكلفه وتعتذر من تقصير إن جرى وقتًا منها في شيء منه " [١٣] .

نلاحظ أن أبن جني يشير إلى مسالة مهمة وهي أن عملية نطق العربية عملية صعبة ، وشاقة لأن الالتزام بضوابطها وأحكامها على جميع مستوياتها اللغوية، ومراعاة ذلك ، وملاحظته إنما يحتاج إلى جهد ، وعناء واضحين بحسب كلام أبن جني.وإن هناك قيمة اجتماعية تترتب على إجراء العربية على أصولها تستلزم الاعتذار في حالة التقصير، والإخلال بإحدى قواعدها.

يجعل أبن جني هذا التنبيه و الإشارة دليلا بينا على أن نطق العربية بما يحتاجه من مؤونة وتكلف إنما يجب أن يكون عن وعي وإدراك ، وتعقل لأسرارها وقوانينها ، ومن ثم من ينطق العربية ينطقها عن إرادة وقصد ، ودراية ، ومعرفة ، وهذا هو مطلب أبن جني الذي أراد إثباته في بابه هذا ، وهو أن السلوك اللغوي عند العرب ، والفعل الكلامي عندهم إنما هو سلوك يصدر عن وعي وإدراك .

وهو يذهب في قبال ذلك إلى نفي فكرة الاتفاق ، وتوارد الخواطر مستدلا باستمرار اطراد القواعد الأصول وعدم تخلفها ، إذ يقول: " ألا ترى إلى اطراد رفع الفاعل ونصب المفعول والجر بحروف الجر

والنصب بحروفه والجزم بحروفه وغير ذلك من حديث التثنية والجمع والإضافة والنسب والتحقير وما يطول شرحه فهل يحسن بذي لب أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وقع، وتوارد اتجه "[١٤].

بل يرى أبن جنى أن نظرية التكلم بالطبع ، والوراثة إنما يجب أن تقوم على علم ، ودراية (حكمة بتعبيره)، ولا يقبل وراثة اللغة لا شعوريا ، لأنه يعتقد أن العقل العربي يمتلك من الخصائص ، والسمات التي تؤكد صفاء فكرهم ، ونقائه ما جعلهم أهلا لحمل هذه اللغة العظيمة ، وقبولها. وهذا ما يظهر جليا في جواب التساؤل الذي طرحه في هذا الباب ، إذ يقول : " فإن قلت (فما تُنكِر) أن يكون ذلك شيئًا طبعوا عليه وأجيئوا إليه من غير اعتقاد منهم لعلله، ولا لقصد من القصود التي تنسبها إليهم في قوانينه وأغراضه ، بل لأن آخرًا منهم حذا على ما نهج الأول فقال به ،وقام الأول للثاني في كونه إمامًا له فيه مقام من هدى الأول إليه، وبعثه عليه ملكًا كان أو خاطرًا ؟

قيل: لن يخلو ذلك أن يكون خبرًا روسلوا به أو تيقظًا نبهوا على وجه الحكمة فيه. فإن كان وحيًا أو ما يجري مجراه فهو أنبه له وأذهب في شرف الحالبه؛ لأن الله سبحانه إنما هداهم لذلك ووقفهم عليه لأن في طباعهم قبولًا له وانطواء على صحة الوضع فيه لأنهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه في أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ونصاعة جوهر الفكر ونقائه لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة إلا ونفوسهم قابلة لها محسة لقوة الصنعة فيها معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها"[١٥] .

ثم يستشهد ببعض الأمثلة التي تؤكد فكرته التي عقد من أجلها هذا الباب، منها ما رواه عن المتنبي من تنبيه أحد الأعراب لصاحبه الذي أخطأ في استعمال الفعل المناسب لوصف فلاة واسعة إذ قال يحير فيها الطرف، فقال له صاحبه : " قال: وآخر منهم يلقنه سرًا من الجماعة بينه وبينه فيقول له: يحار يحار"[١٦]، ويذيل أبن جني هذه القصة بقوله : " أفلا ترى إلى هداية بعضهم لبعض وتنبيهه إياه على الصواب "[١٧] ،عاداً ذلك من مظاهر الوعي ، وصور العقل التي تؤكد أن العرب كانت تتصرف بلغتها عن إرادة ، وقصد مبنيين على إدراك.

ثم ينقل لنا اختباره للشجري : " وسألته يومًا فقلت له: كيف تجمع دكانًا ؟ فقال: دكاكين قلت: فسرحانًا؟ قال: سراحين قلت: فقرطانًا ؟ قال: قراطين قلت: فعثمان قال: عثمانون. فقلت له: هلا قلت أيضًا عثامين قال: أيش عثامين! أرأيت إنسانًا يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبدًا "[١٨] .

إن الدوافع المحركة للسلوك اللغوي العربي لا تتكون بمنطقة اللاوعي ، أو اللاشعور، وإنما تنشأ من الفهم ، والإدراك ، وتوجهه الإرادة نحو غرض ، وقصد معين .فالعرب " يحتاطون ويقتاسون ولا يفرطون ولا يخلطون"[١٩] حينما يستعملون لغته ، وإنما يتصرفون بها على علم ودراية .

فالفعل الكلامي عند العرب سواء أكان منشأ اللغة الإلهام أم الاصطلاح ، فإنه يعد من مفاخرهم ومظهرا من مظاهر العقل اللغوي الناضج عندهم ، قال أبن جني : " إن كانت هذه اللغة شيئًا خوطبوا به،

وأخذوا باستعماله. وإن كانت شيئًا اصطلحوا عليه، وترافدوا بخواطرهم ومواد حكمهم على عمله وترتيبه، وقسمة أنحائه، وتقديمهم أصوله، وإتباعهم إياها فروعه – وكذا ينبغي أن يعتقد ذلك منهم، لما نذكره آنفًا– فهو مفخر لهم، ومعلم من معالم السداد، دل على فضيلتهم"(٢٠).

يستدل أبن جني على ما يدعيه بقوله : " والذي يدل على أنهم قد أحسوا ما أحسسنا، وأرادوا "وقصدوا " ما نسبنا إليهم إرادته وقصده... ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب "ووجوهها"، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها: من استخفافها شيئًا أو استثقاله وتقبله أو إنكاره والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به، أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، بل الحالفة على ما في النفوس ... ، فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس، وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما في أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقًا فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل"(٢١) .

وخلاصة المبدأ الذي يريد أبن جني تأكيده ، وتثبيته هو إن السلوك اللغوي عند العرب بغض النظر عن أصل نشأة اللغة سواء أكانت إلهاما أم تواضعا يتضمن على المستوى التداولي من أسرار التعبير وعجائبه ، وغرائبه ، وابداعات النظم وجماله وروعته ما لا يمكن أن يكون وليد الاعتباط ، أو التوارث ، بل يعده مظهرا واضحا لما يمكن أن نسميه بالإدراك ،والوعي اللغوي.

وهو ما صرح به في أكثر من موضع نحو تعليقه الذي ذكره بعد ذكر مساءلته أحد الأعراب ، إذ قال:" وسألت يوما أبا عبد الله محمد بن العساف العقيلي الجوثي التميمي –تميم جوثة– فقلت له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال: أقول: ضربت أخاك. فأدرته على الرفع فأبى، وقال: لا أقول: أخوك أبدا. قلت: فكيف تقول ضربني أخوك فرفع. فقلت: ألست زعمت أنك لا تقول: أخوك أبدا، فقال: أيش هذا! اختلفت جهتا الكلام . فهل هذا إلا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام وإعطائهم إياه في كل موضع حقه، وحصته من الإعراب، عن ميزة وعلى بصيرة، وأنه ليس استرسالا ولا ترجيما " (٢٢) .

فالحدث الكلامي العربي إنما يقع عن علم ، وبصيرة ، وليس فعلا لا شعوريا ، أو من دون وعي. ولم يكن أبن جني المالك الشرعي لهذا المبدأ ، وأول من طرحه ، وإنما هو من شوائع الكتاب ومشهوراته التطبيقية . فقد نسب سيبويه كثيرا من الأفعال الكلامية ، والمسالك اللغوية الى العرب التي تدل على وجود وعي ، وإدراك يثبتان أن هناك عقلا يتصرف بحكمة في توجيه العربية ، وتنظيمها ، وتنسيقها بنحو أبهر العقول ، وحير الألباب بعظمة ، هذه اللغة وأسرارها .

المبحث الثاني : الأفعال التي نسبها سيبويه للعرب:

نلاحظ في الكتاب أن صاحبه نسب للعرب جملة من الأفعال ذات الدلالة الخاصة بالجوانب العقلية ، والتي عادة ما تستعمل في المباحث المنطقية والفلسفية والأبحاث الكلامية ، واطراد نسبة هذه الأفعال ، ومحافظتها على السياق الدلالي نفسه تؤكد قصدية سيبويه في نسبتها . وأنه كان يعي بوجود مقدار من الوعي اللغوي عند العرب فضلا عن كونه أحد مستقري النحو الذين عايشوا العرب ، ولاحظوا تفاصيل حياتهم ، وشاهدوا بأعينهم مقامات كلامهم . ومن أهم الأفعال التي نسبها سيبويه للعرب (أراد، أرادوا) (قصدوا) ، (علموا) ، (عرفوا) ، (عنوا ، يعنون،) ، (وضعوا ، يضعون).

أولا : الإرادة

يدل لفظ الإرادة في استعماله اللغوي على معنى الطلب والإرادة[٢٣]، أما في الاصطلاح فلم يبتعد معناه عن دلالتها اللغوية ،فقد عرَفها أبو البقاء في كلياتها بقوله : " والإرادة: هِيَ فِي الأَصْل قُوَّة مركبة من شَهْوَة وحاجة وخاطر وأمل، ثمَّ جعلت اسْما لنزوع النَّفس إِلَى شَيْء مَعَ الحكم فِيهِ أَنه يَنْبَغِي أَن يفعل أَو أَن لَا يفعل ،وَفِي " الْأَنْوَار ": هِيَ نزوع النَّفس وميلها إِلَى الْفِعْل بِحَيْثُ يحملهَا عَلَيْهِ ؛ وَيُقَال للقوة الَّتِي هِيَ مبدأ النُّزُوع؛ وَالْأول مَعَ الْفِعْل وَالثَّانِي قبله ، وتعريفها بِأَنَّهَا اعْتِقَاد النَّفْع أَو ظنّه أَو هِيَ ميل يتبع ذَلِك الِاعْتِقَاد أَو الظَّن"[٢٤] ، وقال في موضع آخر: " لَفْظَة الإرادة: تطلق فِي الشَّاهِد وَالْغَائِب جَمِيعًا وَلَفْظَة الْقَصْد: لَا تطلق إِلَّا فِي الإرادة الْحَادِثَة ،والمشيئة فِي الأَصْل مَأْخُوذَة من الشَّيْء وَهُوَ اسْم للموجود وَهِي كالإرادة عِنْد أَكثر الْمُتَكَلِّمين، لِأَن الإرادة من ضرورتها الْوُجُود لَا محَالة، وَإِن كَانَتَا فِي أصل اللُّغَة مختلفتين فَإِن الْمَشِيئَة: لُغَة الايجاد والإرادة: طلب الشيء " [٢٥].

وهذا يعني أن الإرادة لا بد أن تتوافر في نشأتها على درجة من العلم ، والمعرفة – وإن اختلفت درجاتها بحسب المريدين – لتكوينها في نفس الإنسان. وحينما يوصف الكائن الحي بالإرادة فانه يوصف بلازم من لوازم العقل وبمظهر من مظاهره التي تدل على وعيه وإدراكه لحقيقة ما يصدر منه من أفعال وسلوك.

الإرادة عند العرب كما أشار إليها سيبويه:

نسب سيبويه كثيرا من السلوك اللغوي عند العرب إلى إرادتهم ،وقصدهم . وتحدث عن ذلك بطريقة توحي للمتصفح أن المتكلم العربي مريدا ، وقاصدا ،وعانيا لما يقول ، وإنه يختار من التراكيب اللغوية ، واساليبها ما يعبر عن المعنى الذي يدور في خلده بهذا الاسلوب دون ذلك .فمثلا نلاحظ ذلك في قول سيبويه: " وإن شئت نصبتَ فقلت: له عِلْمٌ علمَ الفقهاءِ، كأَنَّك مررت به في حال تعلُّمٍ وتفقُّهٍ، وكأَنّه لم يَستكمل أن يقال: له عالِمٌ. وإنما فُرق بين هذا وبين الصَّوت لأنّ الصوت عِلاجٌ، وأنّ العِلْم صار عندهم

بمنزلة اليَدِ والرَّجلِ. ويدلُّك على ذلك قولهم: له شَرَفٌ، وله دِينٌ، وله فَهَمٌ. ولو أرادوا أنّه يُدْخِلُ نفسَه في الدِّينِ ولم يَستكمل أن يقال: له دِينٌ، لقالوا: يَتديَّنُ وليس بذلك، ويَتشرَّفُ وليس له شَرَفٌ، ويَتفهَّمُ وليس له فَهَمٌ. فلمّا كان هذا اللفظُ للّذين لم يَستكملوا ما كان غيَر علاجٍ، بَعُدَ النصبُ في قولهم: له عِلْمٌ علمُ الفقهاءِ"[٢٦].

فالإرادة عند العرب التي ذكرها سيبويه في هذا النص تشير الى أنها مبنية على وعي واضح وجلي بالفرق الدقيق بين المعاني والألفاظ المناسبة لكل منها، فالإنسان اذا استوفى تمام الصفة بكل لوازمها ، واستكمل شروطها وصف بالاسم دون الفعل للدلالة على الثبات والاستقرار وتمكنه من تلك الصفة ، أما إذا لم يكن قد استوفى ، واستكمل متطلبات الوصف ،فيتعين استعمال الفعل دون الاسم . هذا ما يتعلق باللفظين (دين ويتدين) . أما ما شبهه بهما وهو قوله علم الفقهاء، فبالنصب تكون دلالته على الحال ومرحلة استيفاء شروط العلم ، أما إذا لفظوه مرفوعا فقد دلوا على أنه قد استكمل شروط الوصف والإخبار .

فلم تنشأ إرادة التفريق ، والاستعمال المخصص إلا بعد وعي ، وعلم بالفرق بين المعنيين . ولم يكن هناك اعتباط في اختلاف اللفظين ودلالتهما .

وزعم الخليل رحمه الله أن الذين قالوا الحارث والحَسَن والعباس، إنما أرادوا أن يجعلوا الرجل هو الشيء بعينه، ولم يجعلوه سُمّي به، ولكنهم جعلوه كأنه وصفٌ له غلَب عليه. ومن قال حارثٌ وعباس فهو يُجريه مُجرى زيد[٢٧]. وحينما أدخلت العرب الألف واللام على هذا النوع من الأسماء إنما كانت بقصد جعل المسمى معنى الاسم نفسه ،فمن قال: (الحسن) إنما قصد بذلك يكون الحسن نفسه ،وهذا ما بينه السيرافي في شرحه نص سيبويه ،إذ قال: " فأمّا الحارث والحسن والعباس فمذهب العرب في هذه الأسماء وما جرى مجراها، أن يجعلوها لأولادهم وسائر من يسمون بها تفاؤلا وترجيا أن يصير فيهم تلك الأشياء، فيعزونهم لما تراد له تلك الأسماء نحو الحارث، ومعناه: الكاسب الذي يحرث لدنياه ويكسب، والعباس: المجرّب الذي يعيش في الحرب، فسموا بما أعدّوا له كما يقال: الأضحية والذبيحة لما أعدّ لذلك، وربما اعتقدوا لهم معنى أو رأوه فيهم فوصفوهم به، وغلب فشهروا به، وأغنى عن اسم سواه من الأعلام، كتسميتهم بالحسن الأغرّ وما أشبه ذلك، وبعضهم ينزع الألف واللام ويجرى مجرى زيد ونظائره، ويقول حارث وعباس وحسن، "[٢٨]، فقول العرب الحارث لأنها أرادت تحقق المعنى الحرث في صاحبه ، ومن قال منهم حارث من دون الألف واللام إنما يستعمله .

ومن الامثلة الأخرى قول سيبويه: " فأما الاسم غيرُ المندوب فينبَّه بخمسة أشياء: بيا، وأيا، وهَيا، وأى، وبالألف. نحو قولك: أحارِ بنَ عمرٍو. إلا إن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخى عنهم، والإنسان المعرض عنهم "[٢٩] .والامثلة في الكتاب كثيرة جدا[٣٠]

ولم يكن كلامه يقتصر في الحديث عن الإرادة الجماعية التي قد تمثل العقل اللغوي عندهم بل كثير ما كان يتحدث عن إرادة الأفراد ، ومقاصدهم ، ومن أمثلة ذلك ما أورده سيبويه :

١- قوله : " وقال الراجز، وهو العّجاج : أَطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِيُّ

وإنّما أراد: أَتَطْرَبُ، أي أنت في حال طَرَبٍ؟ ولم يُرِد أن يُخبِر عما مضى ولا عما يُستقبَل" (٣١) .

فنرى سيبويه يحدد المعنى الذي أراده العجاج ،وكأنه كان قاصدا له مريدا ولم يقصد المعنين الذي رفضهما سيبويه ،وإنما قصد معنى التوبيخ ، قال السيرافي: " ومثله: أصبى وأنت شيخ ، ومثله: " ... أطربا وأنت قنّسريّ ... ".وهو: المسنّ في هذا الموضع، إنكارا للطرب مع هذه الحال "(٣٢) .

٢- ومن الأمثلة الأخرى ، قوله : " وقال الأحوَص:

وإنّ بنى حَربٍ كما قد عَلِمْتُمُ ... مَناطَ الثُّرَيَّا قد تَعَلَّتْ نُجومُهَا

وقال: هو منَّى مَعْقِدَ الإزَارِ، فأجرىَ هذا مجرى قولك: هو منّى مكانَ السارية، وذلك لأنّها أماكنُ، ومعناها هو منّى في المكان الذي يقعد فيه الضرباءُ، وفى المكان الذى نيطَ به الثُّريَّا، وبالمكان الذى يَنزل به الولدُ، وأنت منى في المكان الذى تَقعد فيه القابلةُ، وبالمكان الذى يُعْقَدُ عليه الإزارُ، فإنَّما أراد هذا المعنى ولكنه حَذف الكلامَ. وجاز ذلك كما جاز دخلتُ البيتَ وذهبتُ الشأمَ؛ لأنَّها أماكنُ وإن لم تكنْ كالمكان"(٣٣).فالمتكلم العربي يريد بهذه الألفاظ غير ما يدل عليها ظاهر قوله، وإرادته هذه جعلته يتصرف بالمنطوق ، فيحذف منه ما يمكن أن يعلمه السامع مع المحافظة على قصده ، ومراده . وهذا يدل على نباهة المتكلم ، ووعيه ، وقدرته اللغوية المبنية على درجة من التعقل ، والتفكر بأسرار لغته ، وقدرتها الإبداعية في اختصار الملفوظ، وثراء المعنى .والكتاب يفيض بهذه الأمثلة التي تؤكد ذلك وتبينها على أحسن وجه(٣٤).

ففعل الإرادة الذي نسبه سيبويه للعرب في بعض مظاهر السلوك اللغوي يدل على أن إرادة المتكلم العربي في المواضع التي أشار إليها كانت إرادة مبنية على الوعي بحقيقة اللغة ، وظيفتها التداولية ، وأساليبها التعبيرية.

ثانيا : العناية والقصد

وهما أيضا من الأفعال التي نسبها سيبويه للعرب ، وفرق القصد عن فعل الإرادة يتبين لنا من خلال بيان دلالته اللغوية والاصطلاح . القصد في اللغة (إتيان الشيء)(٣٥)، ،قد فرق أبو هلال العسكري بين القصد والإرادة بقوله: " إن قصد القاصد مُخْتَصّ بِفِعْلِهِ دون فعل غَيره والإرادة غير مُخْتَصَّة بِأحد الْفِعْلَيْنِ دون الآخر وَالْقَصْد أَيْضا إِرَادَة الْفِعْل فِي حال إيجاده فَقَط وَإِذا تقدمته بأوقات لم يسم قصدا أَلا ترى أَنه لَا يَصح أَن تَقول قصدت أَن أزورك غَدا "(٣٦) . فالقصد هو المراد من الفعل حال وقوعه ، وايجاده عكس الإرادة التي تسبقه والتي قد لا تتحقق ، ويمكن القول إن القصد هو الإرادة في حال تحقق الفعل. ولهذا المعنى أشار أبو البقاء بقوله: " فَإِن الْقَصْد نوع من الإرادة، "(٣٧) ، وبين هذا المعنى بشكل أوضح في موضع آخر ،إذ قال: " عزم على الْأَمر: أَرَادَ فعله وَقطع عَلَيْهِ، أَو جد فِي الْأَمر [وَأما الْقَصْد فَإِنَّهُ اذا كَانَ

كَافِيا فِي وجود الْمَوْجُود كَانَ مَعَه، وَإِذا لم يكن كَافِيا فِيهِ يتَقَدَّم عَلَيْهِ زَمَانا، وَقد يُقَال: معنى الْقَصْد إِلَى تَحْصِيل الشَّيْء والتأثير فِيهِ لَا يعقل إِلَّا حَال عدم حُصُوله، كَمَا أَن إيجاده لَا يعقل إلا حَال حُصُوله وَإِن كَانَ سَابِقًا عَلَيْهِ بِالذَّاتِ "[٣٨] . والمعنى نفسه نبه عليه صاحب كشاف اصطلاحات الفنون بقوله :" وهو أي القصد ما نجده من أنفسنا حال الإيجاد، لا عزما عليه، ليقدم العزم على الفعل، فلا يتصوّر إيجابه إياه؛ فهؤلاء أثبتوا إرادة متقدّمة على الفعل بأزمنة هي العزم ولم يجوّزوا كونها موجبة، وإرادة مقارنة له هي القصد وجوّزوا إيجابها إياه. وأمّا الأشاعرة فلم يجعلوا العزم من قبيل الإرادة، بل أمرا مغايرا لها"[٣٩] .

والقصد – مثلما أشار إلى ذلك أبو البقاء العكبري – شرط من شروط الكلام عند سيبويه والنحويين[٤٠]، وأوضح كيف أن القصد يعد شرطا للكلام بقوله: "والمعنى مطلقا: هو ما يقصد بشيء، وأما ما يتعلق به القصد باللفظ فهو معنى اللفظ ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصودا، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فهو يسمى معنى بالعرض لا بالذات "[٤١].

ومن أمثلة سيبويه التي ورد فيها فعلا القصد والعناية قوله في استعمال القصد ، ونسبته للعرب: " وإنما يُدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه قد رأيتَه أو سمعت به، فإذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره وعنوه، ولم يجعلوه واحدا من أمة، فقد استغنوا عن الألف واللام. فمن ثم لم يُدخلوهما في هذا ولا في النداء"[٤٢]،أي أنهم لو قصدوا من اللفظ معناه المخصص استغنوا عن أداة التعريف، واكتفوا بالقصد ، قال أبو علي الفارسي: " لم يدخِلوا الألف واللامَ في قولك: هذا ولا في النِّداء، لأنهما تعرفا بالإشارة إليهما والقصدِ لهما "[٤٣].

والقصد إذا تبين من صاحبه عندما يحدث فعلا معينا فإنه يدل على إدراكه ، ودرجة وعيه بذلك السلوك وقصده . فالعرب حينما تستعمل الاسم المعرفة في ما خصصه الاستعمال فإنها تستغني عن علامة التعريف. وهذا يبين فهمها لمسالك لغتها ، وإدراكها بدرجة ما لأساليبها.

ثالثا :الفعل (علموا) في كتاب سيبويه:

وهو من الأفعال التي ذكرها سيبويه في كتابه[٤٤] كثيرا ولاسيما بصيغة الماضي(علموا) .و ظاهره يدل على أن العرب أدركت ، أو كانت تدرك حقيقة الفعل الكلامي إدراكا يدل على معرفتها به وبصياغته . ومن أمثله ذلك ما ذكره سيبويه في باب الاضافة ، إذ قال : " باب يكرر فيه الأسم في حال الإضافة ، ويكون الأول بمنزلة الآخر وذلك قولك: يا زيدَ زيدَ عمرٍو، ويا زيدَ زيدَ أخينا ويا زيدَ زيدَنا.

زعم الخليل رحمه الله ويونس أن هذا كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة. وقال جرير:

يا تَيْمَ تيمَ عَديّ لا أبا لكمُ ... لا يُلقيَنّكمُ في سَودةٍ عمرُ

وقال بعض ولدِ جرير:

يا زيدَ زيدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّلِ وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم كان الأول نصبا، فلما كرروا الاسمَ توكيدا تركوا الأول على الذي كان يكون عليه لو لم يكرروا. " (٤٥).

أي إنهم أدركوا ذلك وتنبهوا لمعناه وكيفية استعماله ، وظاهر كلام سيبويه يدل على نسبة العلم بضرورة تكرار الاسم الأول (تيم) و (زيد) عند قائليه ، ومن ثم يكون السلوك اللغوي المشار إليه مبنيا على المعرفة والدراية بوظيفته في توجيه الإعراب للتفريق بين المعاني .

ومن الامثلة الأخرى قوله : " باب ما ترده علامةُ الإضمار إلى أصله، فمن ذلك قولك: لعبد الله مالٌ، ثم تقول لك مالٌ وله مال، فتفتح اللام، وذلك أن اللام لو فتحوها في الإضافة لالْتبستْ بلام الابتداء إذا قال إن هذا لعلى ولهذا أفضل منك، فأرادوا أن يميزوا بينهما، فلما أضمروا لم يخافوا أن تلتبس بها، لأن هذا الإضمار لا يكون للرفع ويكون للجر. ألا تراهم قالوا: يا لَبكرٍ، حين نادوا؛ لأنهم قد علموا أن تلك اللام لا تدخل ها هنا. "(٤٦).

وإذا ما لاحظنا سلسلة الأفعال التي نسبها سيبويه للعرب في هذا النص مجتمعة، وهي (لو فتحوها ... فأرادوا أن يميزوا ... فلما أضمروا....لم يخافوا ....ألا تراهم قالوا: يا لَبكرٍ، حين نادوا؛ لأنهم قد علموا) وكيف أنه ختمها بفعل العلم تعليلا لتلك الأفعال السابقة فإن ذلك يؤكد أنه يتحدث عن قصد في ما نسبه إليهم ،وإذا ما أردنا أن نكتفي بأقل درجة من درجات وعيهم بلغتهم ، وإدراكهم أصولها قلنا أنهم كانوا يستشعرون الفرق بين اللامين وحركتهما والمواضع التي يخاف أن يلتبس بها الكلام ، والمواضع التي لا يخشون بها الالتباس ، بل يعلمون أنها بينة واضحة نحو قولهم: (يا لَبكرٍ) في النداء هنا ليس من المواضع التي يبتدأ بها فجاز فتح اللام معها. قال أبو علي الفارسي في تعليقاته على هذا الموضع : " إنما لم تدخل لام الابتداء هنا، لأنها تدخل على الاسم المبتدأ المرفوع أو على غيره في باب (إنّ) والاسم المنادى في موضع نصب فلا يجوز أن تدخله هذه اللام " (٤٧).

فهذه الأمثلة وما أشرنا إليه في الهامش تدل على تحقق درجة من العلم ، والإدراك في عقول العرب بهذه الأصول والأحكام التي بنيت عليها لغتهم ،ما فعل سيبويه إلى نسبة فعل العلم لهم .

المبحث الثالث : تصرف العرب بلغتهم وتطويرها:

ذكر سيبويه مجموعة من قواعد النظام اللغوي في العربية. ونسبها للعرب نسبة توحي أن العرب شاركت في صناعة نظامها التعبيري ، وتأسيسه وحافظت عليه ، وأنها أبدعت في تكوينه تكوينا رائعا ساحرا ، يعجبه من يطلع عليه . وتوظيف هذه القواعد لتحقيق تلك المطالب ، لا يمكن أن يكون اعتباطيا أو لا شعوريا ، وإنما ينبئ عن حكمة ومعرفة بأصول الاستعمال ، وضوابط التعبير ولو كان ذلك بقدر معين . وهو ما سيتبين من خلال حديثنا عن بعض القواعد وتوضيحها. ومن هذه القواعد :

القاعدة الأولى: التشبيه:

نسب سيبويه في مواضع عدة قاعدة التشبيه للعرب .ومن عباراته تلك قوله:

١- وقد يشبهون الشيء بالشيء وليس مثلَه في جميع أحواله، وسترى ذلك في كلامهم كثيراً.

٢- كما يشبهون الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله ولا قريباً منه

٣- كما أنهم يشبهون الشيء بالشيء الذي يخالفه في سائر المواضع.

٤- وهم ممَّا يشبهون الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله في جميع الأشياء .

ولو استعرضنا العبارة الأولى لسيبويه ببابها ، وموضوعها التي وردت به ، لاتضح الأمر أكثر ، وتبين كيف أنه يتحدث عن متكلم مدرك ، وواع لما يقول ، ويعلم بخصائص لغته وطرائقها ، قال سيبويه : " وقد قال قومٌ من العرب تُرضىَ عربيَّتُهم: هذا الضاربُ الرجلِ، شبّهوه بالحَسَنِ الوجهِ، وإن كان ليس مثلَه في المعنى ولا في أَحواله إلاّ أنّه اسمٌ، وقد يَجُرُّ كما يجر وَيَنْصِبُ أيضاً كما يَنْصِبُ .

وقد يشبهون الشيء بالشيء وليس مثلَه في جميع أحواله، وسترى ذلك في كلامهم كثيراً. وقال المَرّار الأسدىّ:

أَنا أبن التارِكِ البَكْرِىَّ بشْرٍ ... عليه الطَّيْرُ تَرْقُبُه وقوعا

سمعناه ممن يرويه عن العرب، وأَجرى بشرا على مجرى المجرور، لأنَّه جعله بمنزلة ما يُكَفُّ منه التنوينُ.

ومثل ذلك في الإجراء على ما قبله: هو الضاربُ زيداً والرَّجُلَ، لا يكون فيه إلاّ النصبُ، لأنَّه عَمِلَ فيهما عمل المنَّون، ولا يكون : هو الضاربُ عمروٍ كما لا يكون: هو الحسنُ وجهٍ. ومن قال: هذا الضاربُ الرجلِ، قال: هو الضاربُ الرجلِ وعبدِ الله."[٤٨]

فالعرب تشبه اسم الفاعل بالصفة المشبه على الرغم من اختلاف المعنى بينهما ،وإن كانت لا تعرف كلا منهما بهذا الاسم ، ولكن قول الخليل هو ما يفسر لنا هذا التصور " إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواضع كلامها، وقام في عقولها علله "[٤٩] .

فسيبويه يتحدث عن آليات إجراءات قام بها بعض العرب داخل النظام اللغوي غايتها بناء نسق لغوي ،وتأسيس نمط كلامي على شاكلة نسق ، ونمط آخر . ولا ريب في أن هذا الأمر سواء أكان فرديا أم جماعيا هو تصرف في كينونة النظام اللغوي ما يجعل أنساق هذا النظام متقاربة ومتماثلة في هيئتها أو أحكامها أو لوازمها ، ويجنبها حالة التضارب والاختلاف والتضاد ، ومن ثم تبدو تلك الأنساق بصورة كل ذي أجزاء يكمل بعضها بعضا إلى الدرجة التي تضفي على النظام الدقة المتناهية والتشكل الذي يبهر العقول، ويسلب الألباب وهذا هو المعهود عن العربية .

ولا بد من أن يستند ذلك الإجراء اللغوي الذي سعى إلى التصرف ببعض مكونات النظام اللغوي الى وعي مضمر ، وإدراك مخزون في عقل العربي. ولا نريد أن نغالي فنقول إن العربي حينما ينطق بلغته

ويتصرف بها فهو يمتلك الوعي اللغوي الذي امتلكه سيبويه بل إننا سنقبل بأقل درجاته ومقداره ، شرط أن نثبت وجوده عند العرب ، وأقل ذلك ما عبر عنه الخليل بقوله:عرفت مواضع كلامها ، وقامت في عقولها علله.

وإذا ما أردنا أن نبحث عن أصل ما ادعاه سيبويه من نسبة قاعدة التشبيه للعرب بوصفها آلية إجرائية تستعمل للتصرف ببنية النظام اللغوي ، ثم تحول ذلك إلى مبدأ أساس في نظريته النحوية وتمكن من خلال توظيفه باستنباط كثير من الأحكام ، واستخراج العلل النحوية ، وتفسير العديد من الظواهر اللغوية ، ثم أنه نسب أحداث المماثلة بين الظواهر اللغوية إلى العرب أصحاب اللغة لتكون الآلية الإجرائية التي اتبعها هو نفسه مقتبسة من النظام اللغوي الذي يعمل على اكتشافه ،وتعريفه بغية إضفاء مشروعية خاصة على عمله، فإننا سنجد أن آلية التشبيه ليست أجنبية عن نظام العربية ، أو حدث طارئ ،أو ظاهرة منفردة بل هي فن من فنون كلامها ، وأسلوب متميزة من أساليبها التعبيرية وظاهرة واضحة ، قد أصبحت بعد التأسيس العلمي لعلوم العربية أحد أهم فروع علم البيان العربي .

فالعرب فعلا كانت تشبه الأشياء بعضها ببعض فقد شبهت بسواد الليل وضوء الشمس وجود البحر وغيرها من المعاني التي كانت مشهورة عندهم . ويبدو أن تشبيههم هذا هو من أجاز لسيبويه القول بتشبيه اسم الفاعل بالصفة المشبهة .

القاعدة الثانية : الجعل:

وإذا ما نظرنا في دلالة (جعل) اللغوية ، فإنا سنجده يستعمل في معانٍ متعددة ،أهمها أن "يكون بمعنى إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه نحو: "**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**" الروم / ٢١، وبمعنى تصيير الشيء على حالة دون حالة، فيتعدى إلى اثنين نحو: "**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا** " البقرة /٢٢ ، والتصيير يكون بالفعل نحو: (جعلت الفضة خاتما) وبالقول غير مستند إلى وثوقه نحو: (جعلت زيدا أميرا) ؛ وبالعقد نحو: (جعلت زيدا قائما) وهو اعتقاد كون الشيء على صفة اعتقادا غير مطابق للواقع ، ويكون الجعل بمعنى الحكم بالشيء على الشيء حقا كان نحو: "**وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** "القصص/٧ ، أو باطلا نحو: "**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** "الحجر/٩١ [٥٠] .

وقد استعمل سيبويه الفعل (جعل) بمعنى الصيرورة منسوبا للعرب بوصفه سلوكا لغويا يقوم على أساس التصرف ببنية نظام العربية ، ويعمل على بناء مكوناته ، وصياغتها بشكل مترابط ، ومتراص ، يعضد بعضه بعضا .وهذا ما يفهم من قول سيبويه في استعمالاته الكثير[٥١] التي نختار منها قولين فقط ، أشار فيهما الى مبدأ الجعل أو قاعدة الجعل التي نسبها إلى العرب ، قال في الموضع الأول : " ومثلُ قولهم: من كان أخاك، قولُ العرب ما جاءتْ حاجتَك، كأنّه قال: ما صارت حاجتَك، ولكنّه أدخل التأنيث

على ما، حيث كانت الحاجَة، كما قال بعض العرب: من كانت أُمَّك، حَيْثُ أَوقع مَنْ على مؤنَّث. وإنما صُيِّرَ جاء بمنزلة كان في هذا الحرف وحده لأنه كان بمنزلة المثَل، كما جعلوا عَسَى بمنزلة كان في قولهم: " عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً "، ولا يقال: عَسَيْتَ أخانا. وكما جعلوا لَدُنْ مع غُدْوَةَ منّونةً في قولهم لَدُنْ غُدْوَةً. ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضعٍ على غير حاله في سائر الكلام "[٥٢] . قال السيرافي شارحا قول سيبويه : " يعني أنهم جعلوا له اسما وخبرا، كما جعلوا لكان، وقد بيّنا هذا. ومثل ذلك: " عسى الغوير أبؤسا " جعلوا الغوير اسم عسى ومرفوعا به، وأبؤسا خبر الغوير، فجرت " عسى " مجرى " كان " في أن لها اسما وخبرا في هذا المثل فقط. ولو قال قائل: " عسى زيد أخاك "، كما تقول: " كان زيد أخاك " لم يجز، وإنما أراد أن يريك أن " جاء " و " عسى " في الكلام في غير هذين المثلين ليسا بمنزلة " كان " وصيّرا في هذا الموضع بمنزلة كان في العمل "[٥٣] .

أي أن الفعل (جاء) في هذا الاستعمال صيره العرب بمعنى صار في هذا القول ،وهي خصوصية لها في هذا الاستعمال دون بقية استعمالاتها في المواضع الاخرى. ولاريب في أن هذا الجعل أو هذه الآلية هو تصرف في بنية العربية ، وتصرف في أحوال وحداتها ، وعناصرها اللغوية بنقلها من وضع لغوي ، واستعمال معين إلى استعمال آخر.

وقال في الموضع الثاني: " ويجيء من الأشياء التي هي من شيئين جعلا اسماً واحداً ما لا يكون على مثاله الواحد، نحو: أيادي سبا، لأنه ثمانية أحرف، ولم يجيء اسم واحد عدته ثمانية أحرف. ونحو: شغر بغر، ولم يكن اسمٌ واحد توالت فيه ولا بعدته من المتحركات ما في هذا كما أنه قد يجيء في المضاف والمضاف إليه ما لا يكون على مثله الواحد نحو صاحب جعفرٍ وقدم عمر ونحو هذا مما لا يكون الواحد على مثاله. فمن كلام العرب أن يجعلوا الشيء كالشيء إذا أشبهه في بعض المواضع. وقالوا: حضرميٌّ كما قالوا: عبدريٌّ، وفعلوا به ما فعلوا بالمضاف"[٥٤]، فالعرب تجعل(تصير) الشيء بحال أخرى إذا أشبه شيئا آخر في بعض المواضع، قال أبو علي الفارسي في تعليقته: "حَضْرَمَوْتُ اسمان جعلا اسمًا واحدًا وعبدُ الدّار مضاف ومضاف إليه فبني من الاسمين اللَّذين جعلا اسمًا واحدًا على وزن (جَعْفَر)، فأضيف إليه كما بني من المضاف والمضاف إليه اسم على ذلك نحو (عَبْدَرِيّ)، وأضيفَ إليه فهذا مما وافق فيه الاسمان المضموم أحدهما إلى الآخر المضاف والمضاف إليه"[٥٥]. ويظهر من عمل هذه القاعدة أنها تستند في جوهرها إلى القاعدة الأولى (قاعدة التشبيه) .

ومن المواضع الأخرى لاستعمال سيبويه الفعل (جعل) في هذا المعنى قوله: " واعلمْ أنَّ ناسا من العرب يَجعلون هَلُم بمنزلة الأمثلة التي أُخِذَتْ من الفعل، يقولون: هلمَّ وهَلُمَّى وهَلُمَّا وهَلُمُّوا "[٥٦] .

إن تطبيق مثل هذه الآليات ، وبهذه الدقة التي نراها يستلزم أن يقوم توظيفها على أساس الوعي بها ،وإدراكها بشكل يجعل من استعمالها هكذا غير متناقض مع النظام اللغوي الذي تنتمي إليه . ولا يتصادم مع بقية الآليات الاخرى ، وكذلك لا تختلف مع أصول هذه اللغة وأساسياتها المعرفية.

الخاتمة:

نخلص في نهاية البحث إلى أن الأطروحة التي أشرنا إليها في أثناء صفحاتها يؤيدها ظاهر نصوص سيبويه التي أسند فيها بعض الأفعال نحو الإرادة والعلم والقصد للعرب ،و كذلك من خلال عرض القواعد التي كان يعتقد سيبويه أن العرب تتصرف من خلالها بلغتها .ومن ثم فإن كل هذا يؤكد أن التصور الذي يحمله سيبويه عن العرب هو ما يتفق مع مقولة أن العرب أمة حكيمة ، تضع كلامها في مواضعه الدالة ، وتتصرف بألفاظها على وفق مسارات ، ومسالك متزنة ، ومستقرة تظهر عند مقارنتها ما شذ عنها ، وما اختلف ، وترتبط فيما بينهما بروابط دلالية محكمة تدل بمجموعها على أنها نظام لغوي محكم ، و دقيق ، ومتقن الصنعة ، يعجب نظاره ، ويبهر بأسراره . ومن كانت لغته بهذه الدقة ، والتنظيم ، ونمطها المتميز ، وهو يتقن العربية اتقانها ، ويبرع في فنونها وأساليبها ، فان ذلك يؤكد على وعيه اللغوي وإدراكه ،وإنه يعقل ما يقول ، ويعي ما يتلفظ ، وليس عن سليقة وفطرة مبنية على اللاشعور بالعربية وروائعها ، وبدائعها ، وأفنانين قولها ، وروعة خطاباتها ، وجمال تعبيرها تثبت بذلك حكمة قائليها ، ومعرفة أهلها . ويبدو أن هذا هو اعتقاد سيبويه بهم بوصفه أحد المستقرين الذين خالطوا العرب ، وشاهدوها ، ومن ثم وضع نحوه هو وشيخه الخليل على أساس دراية العرب بلغتهم ، و ومعرفتهم بها . ما يجعل القول بوجود وعي لغوي عند العرب اطروحة مقبولة ممكنة حتى وإن لم نمتلك تفاصيل ذلك الوعي ، وتبين مصادره ، ومنشأه ، وحدوده ، لكننا نقول بتحققه وثبوته.

هوامش البحث :

١- تهذيب اللغة: ٨ / ٣٠٩- ٣١٠، (ق س ل).وينظر المخصص لابن سيده: ٢ / ١٥٤.و تاج العروس : ٢٥/ ٤٥٩(سلق)

٢- تهذيب اللغة: ٨ / ٣٠٩- ٣١٠، (ق س ل).

٣- لسان العرب: ١٠ / ١٦١ ، (سلق).

٤- مفهوم السليقة اللغوية في التراث النحوي عند العرب دراسة لسانية : ١٠٧ .

٥- المصدر نفسه : ١٠٨ .

٦- ينظر : من أسرار اللغة لإبراهيم أنيس : ١٩ .

٧- السليقة اللغوية ، د . أحمد جلايلي: ص ٢٩٧ ، مجلة الآداب واللغات ، جامعة ورقلة الجزائر، م ٢٠٠٥ : العدد الرابع .

٨- مفهوم السليقة اللغوية في التراث النحوي عند العرب دراسة لسانية : ١٠٨ .

٩- العربية بين السليقة والتقعيد، رياض عثمان : ٣٩ .
١٠- الإيضاح في علل النحو ، الزجاجي : ٦٥-٦٦ .
١١- الكتاب : ٢/ ١٠٣ .
١٢- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، د.جواد علي :١٦: ١٩٤.
١٣- الخصائص ٢٣٨/١
١٤- المصدر نفسه ٢٣٩/١ .
١٥- المصدر نفسه ٢٣٩/١-٢٤٠ .
١٦- المصدر نفسه : ١/ ٢٤٠ .
١٧- المصدر نفسه : ٢٤٠/١ .
١٨- المصدر نفسه : ٢٤٣/١ .
١٩- المصدر نفسه : ٢٤٥/١ .
٢٠- المصدر نفسه : ١/ ٢٤٥- ٢٤٦ .
٢١- المصدر نفسه : ١/ ٢٤٥- ٢٤٩ .
٢٢- المصدر نفسه : ١/ ١٧ ، ٢٥١ .
٢٣- ينظر لسان العرب ، لابن منظور : ٣/ ١٨٧(رود) ، والمصباح المنير :٢٤٥ .
٢٤- الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٧٥ .
٢٥- المصدر نفسه .
٢٦- الكتاب : ١ / ٣٢٦ .
٢٧- المصدر نفسه : ١/ ١٠١ .
٢٨- شرح الكتاب للسيرافي ٢٢٧/٢ .
٢٩- الكتاب ٢/ ٢٢٩ .
٣٠ - ينظر الكتاب: ١/ ١١٠ و ٢٠٣ ، ٢/ ١٠٢ ، ٢٣٠ ، ٣١٣. على سبيل التمثيل لا الحصر.
٣١ الكتاب : ٣٣٨/١ .
٣٢ شرح الكتاب للسيرافي: ٢/ ٢٢٨ .
٣٣ الكتاب : ١ / ٤١٤ .
٣٤ ينظر الكتاب: ١ / ٣٤٦، ٣٤٨ ، ٢ / ٣٣ ، ٧٤ .
٣٥ ينظر : الصحاح ،الجوهري : ٢/ ٥٢٤، مجمل اللغة، لابن فارس: ١/ ٧٥٥ .
٣٦ الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: ١٢٦ .
٣٧ الكليات ، لأبي البقاء : ١/ ٦٤٨ .
٣٨ المصدر نفسه : ١ / ٦٥٠ .

٣٩ كشاف اصطلاحات الفنون :١/ ١٣٥
٤٠ الكليات ، لأبي البقاء : ١ / ٧٥١.
٤١ المصدر نفسه : ١ /٨٤٢ .
٤٢ الكتاب: ٢ / ١٩٨ .
٤٣ التعليقة على كتاب سيبويه: ١ / ٣٤٤ .
٤٤ ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٠٧ ، ٢٧٣ ، ٣/ ١٨٩ ، ٤٣٣، ٦١٠ .
٤٥ الكتاب : ٢ / ٢٠٦ .
٤٦ الكتاب : ٢/ ٣٧٧
٤٧ التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي: ٢/ ٩٣ .
٤٨ الكتاب : ١ / ١٨٢ .
٤٩ الإيضاح في علل النحو ، للزجاجي : ٦٥-٦٦ .
٥٠ الكليات : ٣٤٧ .
٥١ ينظر الكتاب: ١ / ٧٦ ، ٣١٩ ، ٣٧٧ ، ٢ / ٤٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣ / ٥، ٩٩ ، ١٦٥ .
٥٢ الكتاب : ١/ ٥٠-٥١ .
٥٣ شرح الكتاب ،للسيرافي: ١ /٣١١ .
٥٤ الكتاب : ٣/٣٧٤ .
٥٥ التعليقة على كتاب سيبويه : ٣ / ٢١٣
٥٦ الكتاب:١ / ٢٥٢

مصادر البحث ومراجعه :

١. الإيضاح في علل النحو ، لأبي القاسم الزجاجي ، تحقيق : مازن المبارك ، دار النفائس ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .
٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)،المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، د.ط .
٣. التعليقة على كتاب سيبويه، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)،ت: د. عوض بن حمد القوزي ،الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
٤. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)،ت محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م
٥. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، تحقيق : محمد علي النجار ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الخامسة، ٢٠١٠م .
٦. السليقة اللغوية ، د . أحمد جلايلي: ص ٢٩٧ ، الاثر، مجلة الآداب واللغات، جامعة ورقلة الجزائر، م ٢٠٠٥: العدد الرابع.

٧. شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (المتوفى: ٣٦٨ هـ)، ت: أحمد حسن مهدلي ، علي سيد علي ،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.
٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)،ت: أحمد عبد الغفور عطار ،الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ،الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م
٩. العربية بين السليقة والتقعيد، رياض عثمان ، دار الكتب العلمية، .
١٠. الفروق اللغوية ،لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)،حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر
١١. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)،ت: عبد السلام محمد هارون ،الناشر: مكتبة الخانجي ، القاهرة ،الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
١٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تأليف : الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله المعروف ب(حاجي خليفة)، تحقيق : محمد شرف الدين بالتقايا ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .
١٣. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)،ت: عدنان درويش – محمد المصري ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت
١٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين أبن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)،الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .
١٥. مجمل اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)،دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان .
١٦. المخصص ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)،ت: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ،الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م
١٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)،الناشر: المكتبة العلمية – بيروت .
١٨. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)،الناشر: دار الساقي ،الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .
١٩. مفهوم السليقة اللغوية في التراث النحوي عند العرب دراسة لسانية ، مصطفى بو جمالة ، رسالة ماجستير ، الجزائر، ٢٠٠٢-٢٠٠٣.
٢٠. من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ،مكتبة الانجلو الانكليزية 'القاهرة، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦.
٢١. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي أبن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)،تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم ،تحقيق: د. علي دحروج ، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ،الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م .